

النخلة " سندركا " في الأدب المندائي

د. قيس مغشعش السعدي \ المانيا \ شتوتكارد
خبير في الادب المندائي

النخل في الشجر كآدم في البشر، أول وأب، مثمر ومعمّر، منتصب الهامة طويل، لا يتكاثر شرفا إلا بالفسيل، صعب المرتقى، بعيد المجتنى، كثير السلاح، شديد الكفاح، بعيد الظل، وافر النوع، كثير العروق، بطيء النشوء، لا يتساقط ورقه، ولا يتصبب عرقه، صبور، قنوع، ذو حنو وعطاء، يشابه الإنسان في صفات، فهو ذكر وأنثى، وهو باللقاح، وهو جذع ورأس، وهو شغاف وقلب، موته لا يكون إلا بقطع الرأس. لم يبدل خصائصه على مرور العصور وكرور الدهور، كل ما فيه فائدة، وأعز فوائده الغذاء والدواء، فثمره الخلال والرطب والتمر، ومنه الدبس. هو المأكّل والملبس، والسقف والمعبر، والسرير والحصير، والبناء والساد، وهو مؤثر الغنى حين يُعد العديد. ذكرته نصوص كل الأديان بأحسن الذكر، وأوردت قيمته وأوصافه كل الشرائع، وحفظت رسومه أقدم الجداريات والأسطوانات والأختام.

ونصوص الديانة المندائية من بين نصوص الأديان التي حفظت القيمة للنخل شجرا وثمرًا. فالنخلة ترد في الأدب المندائي بتسميتين: الأولى " تالا" وهي مفردة مشتركة في عائلة اللغة الآرامية، أما المفردة الأكثر شيوعا وتميزا فهي " سندركا". ويقترن استخدام كلمة " سندركا " بالإشارة الى معنى الفحولة ورمزها لها. إذ يرتبط ورود الكلمة في النصوص مقرونا بكلمة " أينا " التي تعني العين والنبع، كما إنها إشارة الى الأنوثة. ويكون في تعبير " أينا وسندركا " ما يفيد معنى الأنوثة والذكورة، وتعبير عن المرأة والرجل.

ويخطر لنا أن كلمة " سندركا " هي كلمة مركبة في اللغة المندائية ذلك إن كتابتها تكون بالحركة كما يلي: سينديركا. ولو قسمنا الكلمة فنجدها تحتل التجزئة الى " سين" و " دركا ". وبما أن كلمة سين هي تسمية للقمر، وأن كلمة " دركا " تعني الطريق في اللغة المندائية، فيكون من المقبول فهم مصطلح " سندركا " على أنه طريق القمر، ربما لذلك الإرتفاع الذي يلاقي القمر حين ينظر إليها في الليالي، وربما لمدلول آخر.

ومما يرد من تعظيم للنخلة " السندركا" في أوصافها في النصوص المندائية: " سندركا ربا: النخلة العظيمة، سندركا هيوارا: النخلة البيضاء، سندركا إد نورا: نخلة النور، مانا وسندركا: العقل والنخل". " ليوشا إد آدم إد من سندركا نفق": لباس آدم الذي جاء من النخلة. وهذا يعني، كما أشرنا، الى أن النخلة صنو آدم عليه السلام. ومثل هذا ما يرد في التراث الإسلامي أيضا من أن النخلة قد جبلت من فضلة الطينة التي جبل منها آدم وبذلك تكون النخلة أختا لآدم وهي عمّة البشر!

كما أن ثمر النخلة " التمر" هو من أنواع الطعام التي يجب أن لا يخلو منه طقس مندائي فيه طعام. ومن بين هذه الطقوس مائدة الطعام التي توضع أثناء عقد القران وإجراء مراسيم الزواج حيث يكون التمر أساسيا، بل أن وجوده أمر واجب. حتى أن ثمرة تنقع بكمية من الماء مع الزبيب ثم تعصر وتوضع في إناء صغير وتقدم منه جرعة قليلة الى الزوج ليشربها مع قراءة دينية كإشارة ورمز الى تأكيد الفحولة وتغذية الإخصاب لبذر غرس و ذرية طيبة. والتمر أيضا مما يوصى به في الوجبة الطقسية التي يقيمها المندائيون على أرواح موتاهم بدءً من اليوم الأول للوفاة وحتى اليوم الخامس والأربعين وهو آخر يوم تمر به نفس المتوفي في مسيرة عروجه وتجاوزها المطهرات قبل أن يتاح لها أن تلتحق بعالم الأنوار حسب العقيدة المندائية. كما تقام هذه الوجبة في مناسبات دينية أخرى وكلما رغب أهل المتوفي بإجرائها للمتوفين، وهو طقس ذكر ومشاركة وتواصل مع من غادروا الى عالم الأنوار.

ولم يتوقف المندائيون عند هذا الحد من الذكر للنخلة سواء في النصوص الدينية أو الطقوس المعتمدة من قبلهم، بل أنهم أوردوا ذكرها في " الدواوين"، وهي لفائف طويلة تشرح إجراءات وتوضيحات دينية، وتعد من الأدب الديني المندائي المهم. وتتميز هذه الدواوين بوجود الرسومات التعبيرية عن الأشياء والأحداث والحيوانات والشجر والأنهار التي يرد ذكرها. وقد تابعنا ورود ذكر " السندركا " في هذه الدواوين ووجدناه يرد في أغلبها، مع تميز البعض بالرسوم الخاصة بالنخلة. ومما تجدر الإشارة إليه أن النخلة ترد في الأدب المندائي بصيغة المذكر فيكتب: "سندركا هو" أي نخلة هو. ومما يجلب الإنتباه أيضا أن رسم النخلة الذي تكفله الناسخ المندائي منذ أن نسخ الكتب الدينية المندائية قد جاء بأشكال متعددة مع المحافظة على الخاصية العامة للنخلة من حيث منظرها العام. فقد رسم الناسخ هذه الشجرة بشكل يحاكي شكلها الطبيعي حيث الجذع المستقيم والطويل قياسا بأبعاد الشجرة، وإعتمد الناسخ شكل السعف المقطوع الذي يحيط بجذع الشجرة والذي يشكل سلما للصعود على الشجرة من أجل تلقيحها وجني ثمارها. وهذه هي الصيغة نفسها المعتمدة في بلاد ما بين النهرين في قطع سعف النخيل. وقد أخذ السعف الشكل المعروف للنخلة، إلا في بعض الرسومات حيث بدلا من أن يكون متدلليا للأسفل رسمه الناسخ متجها نحو الأعلى بقصد يتطلب الوقوف عليه بحسب النصوص والتعبير الذي يخدمه.

وفي كل الأحوال فقد رسم الناسخ المندائي النخلة بشكل جميل ودقيق وجذاب وتفنن في تقديمها بما يميزها عن أشكال الأشجار والنباتات الأخرى على الرغم من قدم عملية النسخ والتي يرقى بعضها الى حوالي 2000 عاما. ويمكن للقارئ الكريم أن يقف على ذلك من خلال النماذج التي صورناها لهذه الرسومات كما وردت في نسخ من هذه الدواوين. بل أن أحد هذه الرسومات يتطابق في شكله مع أشهر تصميم معماري إعتد حديثا في الإمارات العربية المتحدة ليكون مجمعا سياحيا أخذ شكل النخلة أيضا وسمي بإسمها، وكان مهندسها قد شاهد صورة هذه النخلة في ديوان " ملكوثا إيلنا ".

نماذج من الرسوم التخطيطية للنخلة في الدواوين المندائية



